

الرواية التاريخية وحراسة الهوية: مسلسل "صلاح الدين الأيوبي" نموذجاً

أ.د محمد رضا مغربي

جامعة تندوف

mohamedreda.megherbi@univ-tindouf.dz

استلم: 20-07-2026، مقبول: 21-07-2026، نشر: 26-07-2026

الملخص:

تشهد الدراما العربية المعاصرة التفتاة واعية نحو استدعاء التاريخ؛ بوصفه مستودعاً للقيم الحضارية، ومصدراً ملهماً يعكس المحطات المشرقة في مسيرة الأمة العربية والإسلامية. ولا ينحصر هذا الاستدعاء في البعد التوثيقي الجاف، بل يتجاوزه ليكون خزاناً قيمياً ووقوداً فكرياً يهدف إلى شحذ الهمم، وإعادة توجيه الوعي الجمعي. لا سيما لدى فئة الشباب. نحو التمسك بالهوية الثقافية والدينية التي ترفض التبعية وتتطلع إلى العزة والسيادة. تسعى هذه الدراسة إلى تقديم قراءة فكرية وتحليلية في آليات توظيف الدراما السورية للرواية التاريخية وتحويلها إلى خطاب بصري قيمى يسهم في "حراسة الهوية"، وتعميق الوعي بأن التحديات الوجودية الراهنة التي تواجهها الأمة هي امتداد لصراعات الأمس، وإن تغيرت الوجوه والآليات. وقد اتخذت الدراسة من مسلسل "صلاح الدين الأيوبي" نموذجاً تطبيقياً، لتفكيك أبعاده الفكرية ورسائله القيمية. أهداف الدراسة:

تأصيل الهوية: ربط وجدان الأمة المعاصرة بماضيها القيمي والمجيد عبر الوسيط الدرامي.
الفعالية الحضارية للفن: إبراز القيمة الفلسفية والتوعوية للدراما التاريخية في إعادة بناء الذاكرة الجماعية.
النمذجة السلوكية والقيمية: تحويل المواقف التاريخية والقيم المستلهمة منها (كالعدالة، الوحدة، المقاومة، وحفظ العهد) إلى نماذج حية قابلة للتمثل في واقع الأمة اليوم.
الكلمات المفتاحية: الرواية التاريخية؛ الدراما السورية المعاصرة؛ صلاح الدين الأيوبي؛ الهوية الحضارية؛ القيم الإسلامية والعربية.

Historical Narrative and the Safeguarding of Identity: The TV Series Saladin as a Case Study

ABSTRACT:

Contemporary Arab drama is witnessing a conscious turn toward invoking history, viewing it as a repository of civilizational values and an inspiring source that reflects the luminous milestones in the trajectory of the Arab and Islamic nation. This invocation transcends a mere dry, documentary dimension; rather, it serves as an axiological reservoir and intellectual catalyst aimed at mobilizing resolve and reshaping the collective consciousness—particularly among the youth—toward adhering to a cultural and religious identity that rejects dependency and aspires to dignity and sovereignty.

This study seeks to provide an intellectual and analytical reading of the mechanisms through which Syrian drama utilizes historical narrative, transforming it into a value-driven visual discourse that contributes to the "safeguarding of identity." Furthermore, it

aims to deepen awareness that the current existential challenges facing the nation are a direct extension of past conflicts, despite shifting faces and changing mechanisms. Accordingly, the study adopts the TV series Salah Al-Din Al-Ayyubi as a case study to deconstruct its intellectual dimensions and value-oriented messages.

Research Objectives:

Rooting Identity: Connecting the collective consciousness of the contemporary nation to its glorious, value-driven past through the dramatic medium.

The Civilizational Efficacy of Art: Highlighting the philosophical and educational value of historical drama in reconstructing collective memory.

Behavioral and Value Modeling: Transforming historical stances and their underlying virtues (such as justice, unity, resistance, and fidelity to covenants) into living archetypes to be emulated in the nation's contemporary reality.

Keywords: *Historical Narrative; Contemporary Syrian Drama; Salah Al-Din Al-Ayyubi; Civilizational Identity; Islamic and Arab Values.*

سوف أتناول هذه المقاربة الفكرية عبر الخطوات التالية:

- سرد أمين لأحداث المسلسل، مع الاستعانة بالمرويات التاريخية المعتمدة
 - تقسيم أحداث المسلسل إلى محطات ثلاث: أ- عماد الدين زنكي ب- نور الدين محمود زنكي ج- صلاح الدين الأيوبي
 - مقارنة فكرية تتعلق بعلاقة قيم الهوية الإسلامية ومراحل مشروع التحرر الفكري، وتحرير بيت المقدس، من خلال مسلسل صلاح الدين الأيوبي
 - خاتمة: تتناول ما يستفاد من مجريات الأحداث التاريخية للمسلسل في عصرنا
- 1- مسلسل صلاح الدين الأيوبي ت589هـ (دعاء أبو الضياء، 2020)



ملخص المسلسل:

يقدم المسلسل حياة هذه الشخصية الفذة منذ ولادتها على مراحل ثلاث وهي:

مرحلة عماد الدين زنكي: (أيوب، محمد شعبان، 2020)

لم تكن الأحداث التاريخية مجرد معارك تُخاض، بل كانت قصصاً إنسانية تُكتب بمداد من المواقف والتقلبات. تبدأ حكايتنا حين رمى عماد الدين زنكي بنفسه في أتون صراع مرير دارت رحاه بين السلاجقة والعباسيين. صراعٌ كلفه غالياً، إذ تذوّق مرارة هزيمة قاسية على يد الخليفة العباسي المسترشد سنة 525هـ قرب سامراء.

وفي لحظة الانكسار تلك، وبينما كان يفرّ بفلول جسده وروحه نحو تكريت، فتح له حاكمها نجم الدين أيوب قلبه قبل أبواب مدينته، فأواه وأكرم وفادته. لم تكن تلك مجرد ضيافة عابرة، بل كانت الشرارة الأولى لولادة رابطة إنسانية وثيقة، أساسها المودة، والصدقة، والثقة المطلقة التي لا تززعها الأيام. لكن للوفاء ثمناً؛ فلم يكد الخليفة العباسي يعلم بأمر هذه الضيافة حتى أمر بنفي نجم الدين أيوب وأسرته من تكريت. وجد الأيوبيون أنفسهم بلا مأوى، فما كان منهم إلا أن يمموا وجوههم شطر الموصل، حيث يقيم زنكي. وهناك، ردّ زنكي الجميل بأحسن منه؛ فاحتضنهم وأحاطهم بعنايته ورعايته الفائقة، لتنتفح بهذه الهجرة صفحة جديدة ومدهشة في تاريخ هذه الأسرة، التي قدّر لها بعد أقل من نصف قرن أن تُشيد دولتها المجيدة على أنقاض الدولة الزنكية نفسها!

قلعة جعبر.. الليلة الأخيرة في حياة القائد

دارت الأيام، وبلغت قوة عماد الدين زنكي ذروتها بحلول عام 541هـ/1146م. وتجسّداً لرؤيته السياسية الصارمة القاضية "بألا يبقى وسط بلاده ما هو ملك لغيره"، كما يروي المؤرخ ابن الأثير، وجّه أنظاره نحو قلعة جعبر الاستراتيجية المطلّة على نهر الفرات، والتي كانت بقبضة العقيليين العرب. حاصرها فجأة، واحتدم القتال ضارياً حتى اليوم الخامس من ربيع الآخر.

وفي غمرة ذلك الحصار، وبينما كان القائد يستريح في خيمته، واضعاً عناء المعركة جانباً، امتدت إليه يد الغدر من أقرب الناس إليه؛ إذ هاجمه بعض مماليكه وقتلوه غيلة في عتمة الليل، لتنتهي حياة رجل ملأ الدنيا بشجاعته وذكائه العسكري الفذ.

"لقد كان زنكي، كما ينقل ابن الأثير، صاحب يد بيضاء في الإصلاح والإعمار بالموصل وحلب، وقائداً تمتع بأخلاق وسجايا رفيعة في تعامله مع عامة الناس، مما بوّاه مكانة قيادية سامية ومستحقة في تاريخ ذلك العصر."

رحيل القائد وولادة جيل التحرير

ترجّل الفارس عماد الدين زنكي عن صهوة الحياة وهو في العقد السادس من عمره، تاركاً خلفه إرثاً هائلاً. فقد نجح هذا الرجل الفذ في توحيد جغرافيا شاسعة امتدت من الموصل والجزيرة الفراتية وجنوب الأناضول، وصولاً إلى حلب في شمال الشام، كما سطر اسمه بمداد من نور حين طرد الصليبيين من إمارة الرها الاستراتيجية.

لم تكن نهاية زنكي مجرد غياب لجسد، بل كانت تسليماً لراية الجهاد. فبموته، انفتح الطريق أمام جيل جديد زبّي في أحضان الوفاء والحروب الطويلة، جيل سيحمل على عاتقه تحرير الشام ومصر، وليبزغ من عتمة ذلك العصر اسمان غيّرا وجه التاريخ: نور الدين محمود الشهيد، وتلميذه الناصر صلاح الدين الأيوبي.

ثم مرحلة ولده نور الدين محمود: (كرم الدين حسين، 2024)

في حلب الشهباء، وفي عام 511هـ (1118م)، أبصر نور الدين محمود زنكي النور، واستهل رحلته في هذه الحياة. لم يكن طفلاً عادياً؛ فقد نشأ في كنف والده القائد الفذ عماد الدين زنكي، مؤسس الدولة الزنكية وفارس جهاد الأمة ضد الصليبيين. في هذا البيت القائم على الثغور، تشرب الصغير روح المسؤولية، ونبتت روحه على مبادئ العدل العارم والإحسان الصادق، لتتشكل شخصيته لاحقاً كأبهى ما يكون القائد المسلم: إنساناً يحمل همّ رعيته في تفاصيل يومه قبل خططه العسكرية.

لم تكن عظمة نور الدين ادعاءً، بل كانت حقيقة أهرت المؤرخين. ينقل لنا المؤرخ ابن الأثير في كتابه "الكامل"، وهو يتأمل أحداث عام 569هـ، شهادة تنبض بالإعجاب والذهول الإنساني، حيث يقول: "قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحريماً للعدل والإنصاف منه.

تفاصيل الحياة اليومية: ملكٌ بلا قصر.. وقائدٌ زاهد

خلف هيبة الانتصارات وقوة السلطان، كمن إنسانٌ شديد البساطة، قسّم ليله ونهاره في محراب الواجب؛ فما بين عدل ينشره بين الناس، وجيش يجهزه للذود عن الأمة، ومظلمة يرفعها عن كاهل ضعيف، وعبادة يتبتل فيها لله، وإحسان يغمر به من حوله، انقضى عمره.

لم تغره أضواء الحكم ولا بهرجة السلطان؛ فلم يمد يده يوماً لیتقاضى راتباً من بيت مال المسلمين. كان يأكل ويلبس هو وأهل بيته من حر ماله الخاص وكسب يده. والأكثر دهشة في سيرته الملوكية، أنه لم يملك بيتاً قط! بل كانت إقامته ومستقره مجرد غرفة متواضعة في قلعة اشتراها من ماله الخاص، يأوي إليها ليريح جسده المثخن بجراح المعارك، كلما عاد مطمئناً من ساحات الجهاد". (ابن الأثير، 1385-1965)

ومن ثم مرحلة صلاح الدين التي تتوج بمعركة حطين الشهيرة ثم تحرير بيت المقدس (علي محمد الصلابي، 2008/1429).

في عام 532هـ/1137م، شهدت قلعة تكريت العتيقة ولادة طفلٍ سيغير وجه التاريخ، صلاح الدين الأيوبي. تكريت تلك البلدة القريبة من بغداد، المترعة على صخرة عظيمة تطل على نهر دجلة، بناها الفرس قديماً كمخزن للذخيرة ومرصد للعدو، حتى فتحها المسلمون في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه. لكن عظمة المكان لم تكن هي الحكاية، بل "توقيت" الولادة الإنساني الذي صاغته أقدار عجيبة.

صرخة الولادة وبكاء الغربية

لم يولد صلاح الدين في سرير دافئ مستقر، بل ولد والرجال تُشد، والدموع تُسكب. ففي اليوم ذاته الذي أبصر فيه النور، صدر أمرٌ عاصف من "مجاهد الدين بهروز" والي بغداد، يقضي بمغادرة والد صلاح الدين (نجم الدين أيوب) وعمه (أسد الدين شيركوه) لقلعة تكريت فوراً!

خلف هذا الطرد القاسي تكمن قصة إنسانية تنبض بالمروءة؛ إذ كان عم صلاح الدين قد قتل أحد قادة القلعة انتقاماً لشرف امرأة ضعيفة استغاثت به بعد أن آذاها ذلك القائد في عرضها، فلم يتردد شيركوه في نصرتها وقضى عليه.

وجد الوالي "بهروز" نفسه في حيرة إنسانية بالغة؛ فهو يحترم الأخوين، لكنه يخشى عليهما من انتقام بقية قادة الجيش وثورتهم. ولأن قلبه كان معهما، أتاها متظاهراً بالخوف والشفقة، وطلب منهما الخروج تحت جناح الظلام حقناً لدمائهما. وفي تلك الليلة المظلمة، حزم الرجلان أمتعتهم على عجل، وحملا أسرتيهما والقلوب واجفة، وخرجا يقصدان الموصل، وفي رحل الزوج والغربة، كان يرقد طفل صغير، يبكي صرخته الأولى في الحياة.. طفلٌ لم يكن يعلم أحد في تلك الليلة الحزينة أنه سيصبح يوماً فاتح القدس ومسطر أمجاد الأمة، صلاح الدين.

ثم نشأ صلاح الدين بمعية أبيه نجم الدين أيوب، وعمّه أسد الدين شيركوه اللذين كانا في خدمة نور الدين محمود زنكي فقد ذكر أبو شامة: (أبو شامة المقدسي، 1418-1997، صفحة 209 ج1) حين التقى الشاب صلاح الدين بالقائد نور الدين محمود، تلقاه الأخير بحفاوة بالغة وقبّله تقديرًا، ثم أحاطه بعنايته ورعايته الخاصة بعدما لمس فيه أمارات النجاة والذكاء.

لم تكن العلاقة مجرد وظيفة، بل كانت ثقة إنسانية عميقة؛ إذ جعل نور الدين من هذا الشاب النابه بمثابة "كاتم أسرارهِ وضابط ركنه الشخصي"، يوكل إليه المهام الحساسة واستشارة كبار القادة كعمه شيركوه في شؤون الدولة، لتكون هذه القربى هي الخطوة الرسمية الأولى لصلاح الدين في طريق المجد. فقد فصل لنا "ابن الفرات" ذلك بقوله: تربى صلاح الدين (يوسف) في كنف والده نجم الدين أيوب، وتحت ظلال رعاية الملك العادل نور الدين محمود في دمشق. هناك، لم يكن شاباً عادياً، بل كانت أمارات النجابة والسعادة تلوح في وجهه. في بعلبك ودمشق، صقل روحه بالعلوم الشرعية، وجسده بفنون القتال والفروسية، حتى أنه برع في لعبة "الجوكان" على ظهور الخيل التي ورث شغفها عن أبيه، متعلماً قيم الخير والجهاد من محيطه.

حارس أمن الشام.. ومُبيد الخوف

حين تولى رئاسة شرطة دمشق، لم يتعامل مع المنصب كأداة سلطة، بل كرسالة إنسانية. طهر المدينة من العبث والصوص، وأعاد للناس سكنتهم وأمانهم على أنفسهم وأموالهم. هذه الفرحة العارمة بعهد الأمان الجديد صاغها الشاعر "عرقلة الدمشقي" بظرافة وصدق حين قال:

رُؤَيْدَكُم يَا لُصُوصَ الشَّامِ --- فَإِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ فِي الْمَقَالِ

أَتَاكُمْ سَمِيُّ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ --- يُوسُفُ رَبُّ الْحِجَا وَالْجَمَالِ

فَذَاكَ يُقَطِّعُ أَيْدِيَ النِّسَاءِ --- وَهَذَا يُقَطِّعُ أَيْدِيَ الرِّجَالِ

أما في مصر، فقد بدأت الملاحم الكبرى التي صهرت عبقريته النادرة. لازم عمه المحنك أسد الدين شيركوه في حملاته الثلاث، فكان ذراعه اليمنى وعقله المدبر. أدار الأمور هناك بحس سياسي رفيع وحكمة بالغة، حتى نجح بذكائه وحسن تدبيره في ضم مصر إلى الدولة النورية، مخلصاً شعبها العظيم من وطأة الحكم الفاطمي، لتبدأ من النيل أولى خطوات حلمه الكبير.

خلف كواليس التواريخ الجافة، يختلف المؤرخون في تحديد اللحظة الحقيقية لولادة الدولة الأيوبية.

البداية الأولى:

يراهما البعض في اللحظة التي تولى فيها صلاح الدين الوزارة من الخليفة الفاطمي العاضد سنة 1169م، حيث بدأت سلطته الفعلية على الأرض.

أما المنعطف الأكبر:

يربطه آخرون بسقوط الخلافة الفاطمية وعودة الخطبة للعباسيين في مصر سنة 1171م.

لكن الحقيقة الإنسانية والسياسية تخبرنا بغير ذلك؛ فطوال تلك السنوات، ورغم قوته ونفوذه، ظل صلاح الدين محتفظاً بوفائه وأدبه التام كـ "تابع" لإرادة أستاذه ومُعلمه نور الدين محمود.

ولادة الحلم واستقلال البطل:

لم تبدأ الدولة الأيوبية ككيان مستقل وشرعي إلا في عام 569هـ/1174م، وهو العام الذي ترجّل فيه المعلم نور الدين عن الحياة. حينها فقط، وجد صلاح الدين نفسه وجهاً لوجه أمام التاريخ، مجبراً على حمل الراية وحده؛ ليعترف به الخليفة العباسي في العام التالي ملكاً مستقلاً، وتبدأ رسمياً ملحمة الدولة الأيوبية.

المحطة الفاصلة: معركة حطين وتحرير بيت المقدس (علي محمد الصلابي، 2008/1429، صفحة 493)

في الرابع من يوليو/تموز 1187م (25 ربيع الثاني 583هـ)، التقى جيل التحرير بوعده مع التاريخ في تلال حطين قرب طبرية. لم تكن المعركة وليدة يومها، بل كانت ثمرة حلم توارثته الأجيال؛ بدأه عماد الدين زنكي برؤية توحيد مصر والشام، ثم سار على دربه ابنه نور الدين، ليحمل الراية أخيراً صلاح الدين الأيوبي الذي جمع شتات الأمة تحت لوائه.

الشرارة.. وصراع الظمأ

حاول صلاح الدين كسب الوقت فصالح الصليبيين أربع سنوات، لكن "أرناط" حاكم الكرك نقض العهد بغدره المعهود حين هاجم قافلة تجارية للمسلمين ورفض إطلاق الأسرى. وفي تلك الأثناء، تفتتت الجبهة الصليبية بالصراعات الداخلية بعد موت ملكهم بلدوين الخامس، فاستغل صلاح الدين الفرصة بذكاء، وشق صفوفهم بالتحالفات، وحشد جيشاً من مصر والشام والموصل بلغت عدته 25 ألفاً، في مواجهة حشد صليبي ضخم وصل لـ 63 ألف مقاتل. ثم جرّ صلاح الدين الصليبيين إلى فخ قاتل؛ حيث ساروا في هجير الصيف الحارق مسافة 20 كيلومتراً بلا ماء أو مؤونة، حتى عسكروا عند "قرون حطين". وهنا تجلت عبقرية صلاح الدين الإنسانية والعسكرية:

حصار المياه:

قطع بين الصليبيين وبين مياه بحيرة طبرية، فباتوا يصارعون الظمأ القاتل.

سلاح الريح والنار:

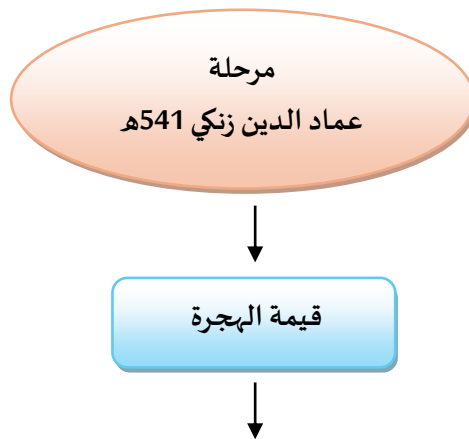
تحت جنح الليل، استغل هبوب الرياح نحو معسكر الأعداء، فأمر بإشعال النيران في الحشائش اليابسة، ليتراكم عليهم لهيب الصيف، ودخان النار، وعطش الصحراء.

ومع بزوغ الفجر، حاصروهم فوق الجبل وسلمهم "الصليب الأعظم" الذي يمثل رمز قوتهم الروحية، فدب الرعب في قلوبهم وسقطت قلاعهم النفسية قبل العسكرية، لتتحقق الهزيمة الساحقة.

في خيمة القائد: عدالة الملوك

بعد النصر، جيء بملوك الصليبيين أسرى إلى خيمة صلاح الدين. وفي لفظة إنسانية، أمر القائد بماء مثلج لملك بيت المقدس ليروي عطشه، فناول الملك الكأس لـ "أرناط" الغادر ليشرّب. هنا تدخل صلاح الدين بحزم القائد العادل، فذكر أرناط بجرائمه وغدره بالعهود، وقام بضرب عنقه بيده تفعيلاً للعدالة.

- مقارنة فكرية تتعلق بعلاقة قيم الهوية الإسلامية ومراحل مشروع التحرّر الفكري وتحرير بيت المقدس، من خلال مسلسل صلاح الدين الأيوبي



من خلال ما عرضنا آنفا حول مرحلة عماد الدين زنكي وما شابهها من أحداث تاريخية، نتوصل إلى استخلاص قيمة تاريخية بشرية في غاية الأهمية لبناء أي مشروع، ألا وهي الهجرة التي مارسها أو فرضت على عماد الدين حين فرّ هارباً من بطش الخليفة العباسي صوب تكريت

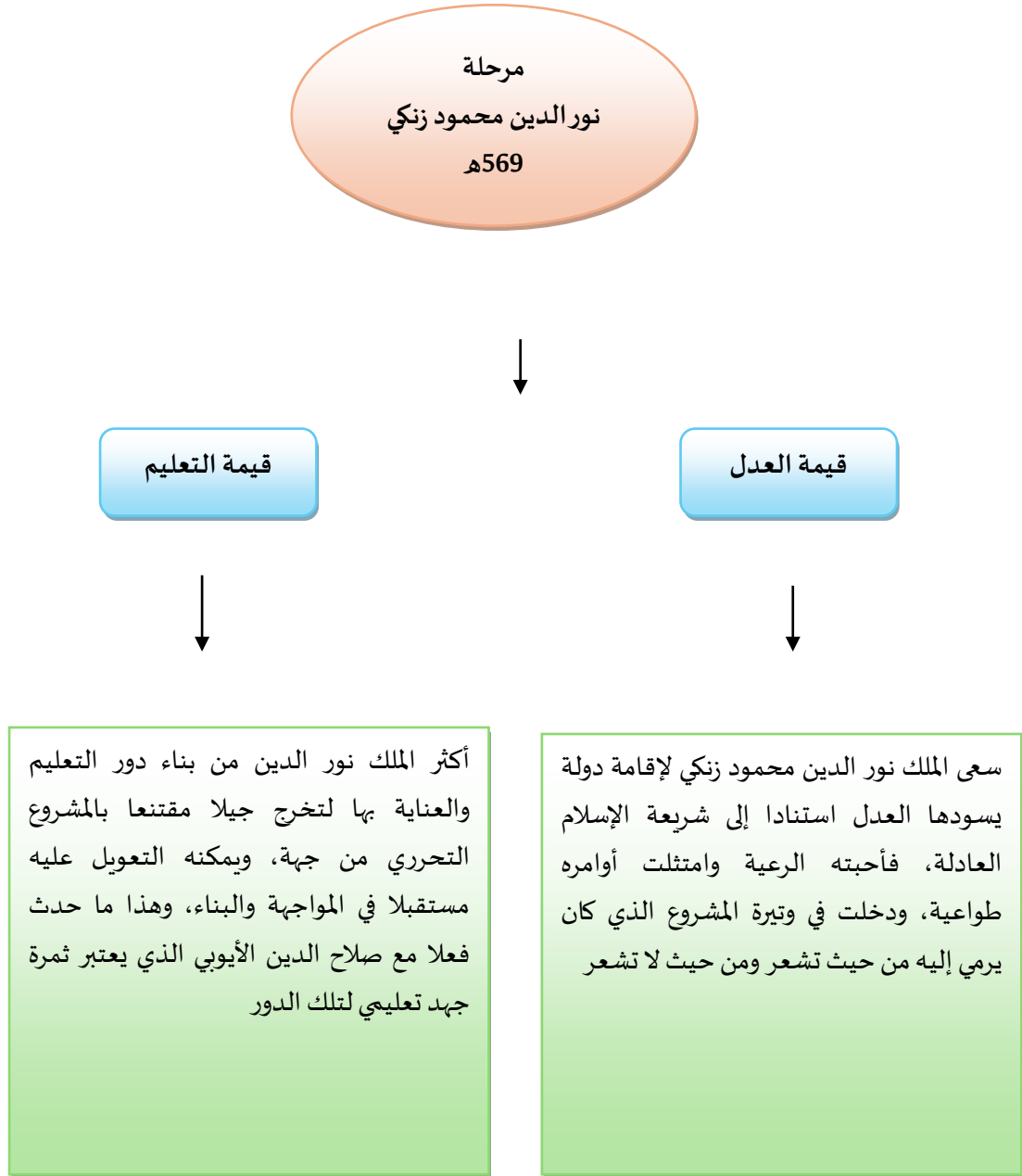
إنّ إسقاط قيمة «الهجرة والفرار من بيئة الضغط إلى بيئة البناء» على واقعنا المعاصر يفتح للأمة الإسلامية آفاقاً عملية للنهضة، تتمثل أساساً في تخطي المفهوم الكلاسيكي للهجرة. وهي هجرة باتت القوى الغربية المهيمنة – ومن ورائها الأنظمة الوظيفية المتحكمة في العالم العربي – تعي أثرها الحساس؛ فلذا نراهم يتهافتون على منعها بشتى السبل؛ تارةً بترسيخ حدود «سايكس بيكو» Sykes–Picot Agreement، وتارةً بإذكاء النعرات بين الشعوب وإغلاق الحدود لعقود، متحجّجين بنظام التأشيرات والتراخيص الدولية. وأمام هذه النازلة المفروضة التي تحوّل بيننا وبين الهجرة بمعناها الجغرافي المتعارف عليه، باتَ لزاماً علينا الانتقال إلى «تبيئة الهجرة»؛ بجعلها خياراً ممكناً وأمراً واقعاً في حياة الناس اليوم عبر الفضاءات البديلة.

- "الهجرة الاستراتيجية" للعقول والخبرات

الأمة اليوم تعاني من تضيق أو بيئات طاردة للكفاءات، وإنّ الاستثمار الحقيقي أمام هذه الحالة المستشرية ليس في البكاء على "هجرة الأدمغة"، أو محاولة إغواء الأدمغة للدخول إلى البلاد العربية، بل يجب تحويل ذلك كله إلى "هجرة زكية" تجمع القوة في مكان آخر لتخدم الأصل.

- تأسيس شبكات عابرة للقارات من العلماء والباحثين المسلمين المستقرين في الخارج لإنشاء مراكز أبحاث وصناعات تكنولوجية مستقلة.
- اعتبار المهجر مستودعاً لبناء القوة المعرفية والاقتصادية، ثم إعادة توجيه هذه القوة لخدمة قضايا الأمة المحورية (وعلى رأسها بيت المقدس).
- صناعة البيئات البديلة (المواصل الرقمية والمجتمعية)
- إذا كانت الجغرافيا قد ضاقت على أسرة زكي ففروا إلى الموصل، فإن الفضاء الرقمي اليوم يمثل "موصل العصر".
- يمكن للأمة اليوم بناء مؤسسات علمية، واقتصادية، وتوعوية عابرة للحدود والقيود السياسية.

- الاستثمار في السيادة الرقمية (الذكاء الاصطناعي، الأمن السيبراني، الاقتصادات الرقمية المستقلة) يخلق قوة فتيّة قادرة على التأثير والتحرير الفكري والاقتصادي دون الحاجة لتراخيص من القوى المهيمنة.



قيمة العدل: "شرعية الإنجاز والمشروعية الأخلاقية"

الشعوب لا تعرّض أفرادها للتضحية من أجل حكام أو مسؤولين يظلمونها، ولا تنخرط في مشاريع تحرير أو بناء وهي تعاني من الضيم والطغيان الداخلي. وإنّ في تأسيس نور الدين لدار العدل—إذ كان يجلس فيها بنفسه ليقضي بين الناس ويأخذ حق المظلوم من الظالم ولو كان من خاصّته—لَدليلاً على ذلك؛ لذا وجدت الرعية نفسها أمام عدل مشاهد وحد من جبهتها الداخلية، ونقل ولّاء الأفراد من "الأشخاص" إلى "المبدأ"، فأصبح الفرد يشعر أن معركة نور الدين هي معركته الشخصية، فتحقق الانخراط الطوعي والوعي الجمعي بالمشروع.

قيمة التعليم: "المأسسة المستدامة وصناعة جيل التحرير"

الملاحظ لحال الوطن العربي اليوم وحتى الدول المتخلفة، أن المشاريع تُبنى فيها على الكاريزما الفردية، وسرعان ما تتوقف أو تضمحلّ بموت صاحبها. وقد أدرك نور الدين هذه الثغرة التاريخية، فبنى "المدارس النورية" في حلب، ودمشق، وحمص، وبلبك. إذ لم تكن تلك المدارس لمحو الأمية فحسب، بل كانت محاضن فكرية وإيديولوجية صهرت المجتمع في مذهب فكري موحد (السُنّة) لإنهاء التشرذم، وغرست فيه قيم العزّة ورفض التواجد الصليبي الذي طال أمده في الشام وبيت المقدس آنذاك. وفي هذا السياق نشير إلى أن ظهور صلاح الدين الأيوبي لم يكن طفرة؛ بل كان، مع رجاله وقضاته وجيشه، الثمرة الطبيعية والشرعية لهذه البيئة التعليمية العقائدية. مات نور الدين، لكن "المشروع" لم يمت بموته لأن المؤسسة التعليمية كانت قد أنتجت بديله الإستراتيجي.

ثم إذا ما نظرنا إلى واقع الأمة الإسلامية اليوم، نجد أن غياب هاتين القيمتين بالتحديد هو سبب الانتكاسة. فنرى المجتمعات في الوطن العربي تعيش حالة من الاغتراب السياسي والاجتماعي؛ بسبب غياب العدالة في توزيع الثروات، وغياب الحريات، والمحسوبية التي استشرت بشتى أضرّجها. هذا المناخ ينتج شعوباً محبطة، تفكّر في "الهجرة والفرار السلبي" أو تنكفئ على ذاتها، وتفقد أي حماس للانخراط في مشاريع قومية أو إسلامية كبرى.

أما التّعليم في عالمنا العربي المعاصر فقد صار في كثير من الأحيان تعليمًا "آلياً" أو "تلقينياً" يهدف إلى تخريج موظفين مستهلكين لخدمة النظام الرأسمالي أو العولمة، دون ربط المعرفة بمشروع نهضوي للأمة، مما أنتج انفصاماً بين النخبة المتعلمة وقضايا أمتها المصيرية.

وهذان التشخيصان يقودان إلى كيفية استلهاهم تجربة "نور الدين" مع القيمتين المشار إليهما سلفاً، وترجمة ذلك إلى خطة عمل على أرض الواقع لنهضة الأمة اليوم. وبما أن جغرافيا الأمة اليوم مقيدة، فإن امتثال العدل يبدأ من الدوائر المتاحة:

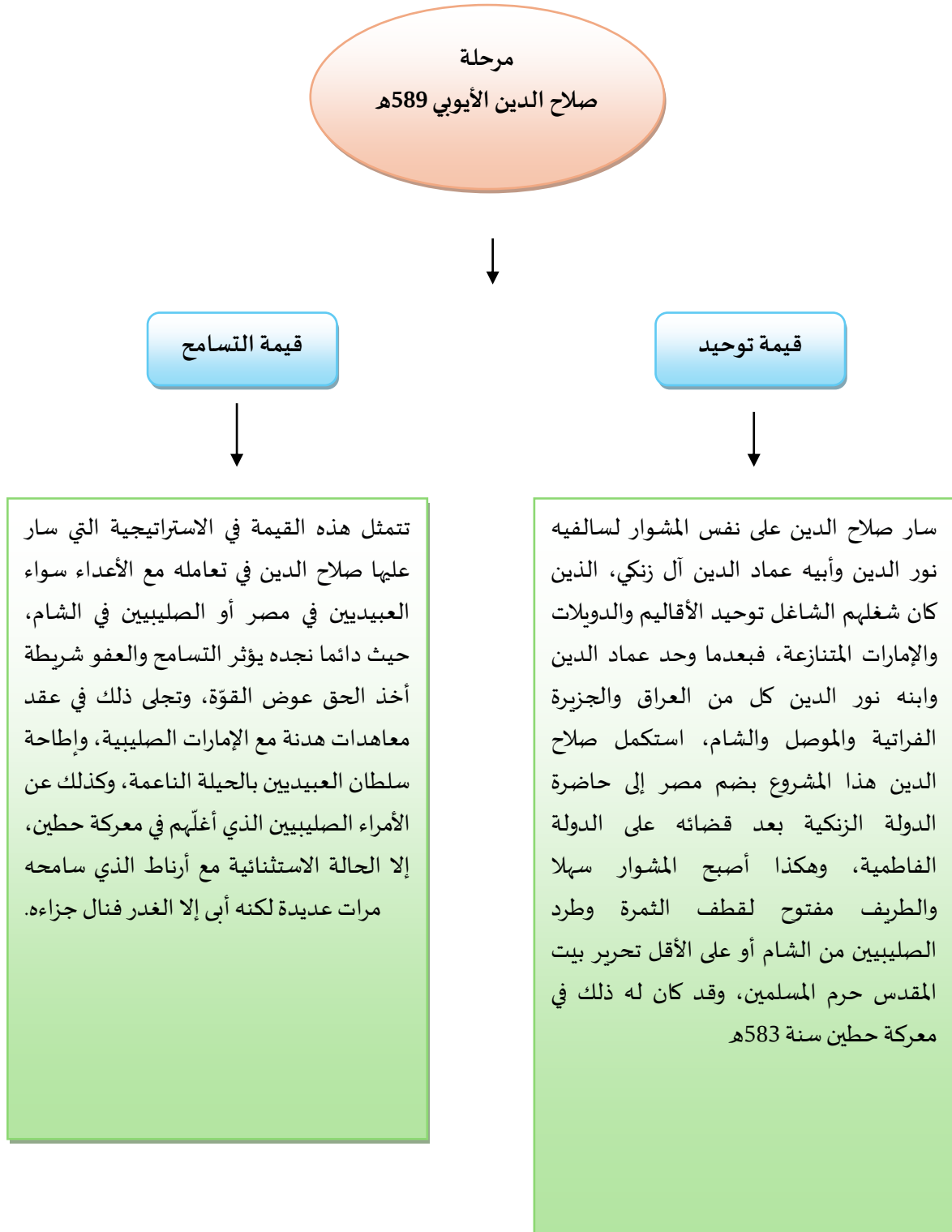
- على الحركات الإصلاحية، والمؤسسات الاقتصادية، والروابط العلمية المستقلة، تقديم "نموذج بديل" في العدل والشفافية وتكافؤ الفرص داخل محاضنها، ليرى الناس تطبيقاً عملياً لعدالة الإسلام.

- استغلال الفضاءات المفتوحة لتعرية الظلم، ونصرة قضايا الأمة (وعلى رأسها القضية الفلسطينية)، وخلق جبهات رأي عام عالمية تفرض العدل الأخلاقي، وتكشف زيف المنظومة الدولية.

أما قضية التّعليم فإنّ رهاننا وتعويلنا على المناهج الرسمية للأنظمة الوظيفية هو نوع من الوهم؛ والبديل هو "التعليم الرسالي" كما أشارت إلى ذلك أدبيات مفكري النهضة والتربية الإسلامية في النصف الثاني من القرن العشرين، ك(شروط النهضة ومشكلة الثقافة) لمالك بن نبي، و(فلسفة التربية الإسلامية) لماجد الكيلاني، و(منهج التربية الإسلامية) لمحمد قطب... إلخ. وكذلك وجوب استثمار الفضاء الرقمي المتاح في عالمنا اليوم لهذا الغرض؛ بحيث يتم إنشاء منصات تعليمية، وجامعات مفتوحة، ومراكز تفكير (Think Tanks) تُعنى بـ"التعليم الرسالي"؛ تعليم يربط العلوم الحديثة (الذكاء الاصطناعي، الاقتصاد، السياسة) بالهوية الإسلامية والمشروع التحرري.

إن معادلة نور الدين محمود تقول: العدل يوفر الحاضنة الشعبية المخلصة، والتعليم يوفر الكفاءة المعرفية المستدامة. وبدون العدل تنفضُ الشعوب من حولك، وبدون التعليم تسير

الشعوب في عماية عاطفية لا تصنع نصراً. فنحن اليوم بأمرّ الحاجة إلى دمج العدالة المؤسسية بالتعليم الرسالي الافتراضي والواقعي لإعادة إطلاق القوة الفتية للأمة.



1. قيمة توحيد الصف:

لقد أدرك آل زنكي وخاصة نور الدين ومن بعده صلاح الدين حقيقة جغرافية وثقافة سياسية راسخة: "لا مشروع تحرير مقدسات، أو بناء أمة في ظل جبهة إسلامية داخلية ممزقة". إذ كانت الشام ومصر والعراق آنذاك عبارة عن كيانات معزولة ومتناحرة، بل إن بعضها كان يحالف الصليبيين ضد البعض الآخر! لذلك لا عجب أن نرى صلاح الدين يستحث الخطى بتوجيه من نور الدين وبعد وفاته إلى المشروع التاريخي بضم مصر إلى الشام؛ وقضائه على الخلافة الفاطمية (العبيدية) إذ لم يكن ذلك رغبة منه في التوسع، بقدر ما كان "إغلاقاً لفكي الكماشة" حول الوجود الصليبي. فتوحيد مصر (بثقلها البشري والزراعي) مع الشام والعراق (بثقلها العسكري والعمق الإستراتيجي) هو الذي أنشأ الجبهة المتماسكة اللازمة لكسر التوازن العسكري في حطين.

2. قيمة التسامح:

إنّ التسامح عند صلاح الدين لم يكن ضعفاً أو تهاوناً، بل كان ضرورة مرحلية، وقيمة نبيلة أصيلة لدى المسلم العادي؛ بله كونه قائداً يحاول تجسيد مشروع تحرري، وتوحيد جبهة داخلية لذات الغرض، فنجد هذا التسامح يمثل لديه أداة سياسية وأخلاقية؛ لتأليف القلوب، واقتصاداً لكلفة الحرب. فنجد أنه تمكن من إسقاط الدولة الفاطمية بـ "الحيلة الناعمة" دون إراقة دماء أو الدخول في حرب داخلية طويلة الأمد تكلف المال والإنسان، فحافظ على إثر ذلك على النسيج الاجتماعي لمصر وحوّلها سريعاً إلى رافد لجيشه مندمج ومنخرط في عملية التحرير الكبرى.

أما تسامحه مع الصليبيين بعد معركة حطين وفي فتح بيت المقدس (مقارنة بالمجازر التي ارتكبتها الصليبيون عام 492هـ عند دخولهم الأول) فقد كان أعظم حملة علاقات عامة في التاريخ؛ حيث نزع عن العدو حافز "القتال حتى الموت"، وأظهر تفوق الإسلام الأخلاقي، مما جعل قلاعاً بحجم عكا وعسقلان تسقط تلو الأخرى تباعاً بطلب الأمان والصلح. واستثنائه لـ "أرناط" (رينو دي شاتيون) Renaud De Chatillon يثبت أن التسامح كان مضبوطاً بـ "الحزم ومبدأ الردع" ضد الغدر والخروج عن المواثيق.

أزمة "تشّتت الصف" اليوم

تعيش الأمة الإسلامية اليوم واحدة من أسوأ فترات تشرذمها؛ ليس فقط بفعل الحدود السياسية المصطنعة التي خلّفتها اتفاقية "سايكس بيكو"، بل بسبب "الاستقطاب الداخلي الحاد" (عرقياً، ومذهبياً، وحزبياً). إذ باتت بعض الكيانات الإقليمية مستعدّة للتحالف مع القوى الدولية المهيمنة ضدّ جيرانها، في استنساخ مريع لسيناريو "ملوك الطوائف" والأتابكيات المتناحرة في الشام قبيل مجيء عماد الدين زنكي.

هذا التمزّق هو ما يجعل الاستفراد بأيّ ثغر مستضعف (كغزة وفلسطين اليوم) أمراً سهلاً ومتاحاً للأعداء، بل قد يتجاوز الأمر التخاذل إلى تقديم دعم مباشر وعلمي لمنظومة الهيمنة ضد أيّ ثغر مقاوم يسعى لتحرير ذاته من برائن التبعية.

انحراف مفهوم "التسامح"

وفي المقابل، طرأ انحراف حاد على مفهوم "التسامح" في واقعنا المعاصر؛ إذ تحوّل لدى غالبية النخب المثقفة والأنظمة الحاكمة في عالمنا العربي من "تسامح القوي الوثائق" إلى "تنازل واستجداء للرضا" وتبعية مطلقة (تحت مسمّى التطبيع المجاني)، مما أفقد الأمة هيبتها الإستراتيجية، وجعل مقدراتها الطبيعية والبشرية مغنماً مستباحاً للشرق والغرب.

مسارات استثمار القيم التاريخية في النهوض المعاصر:

أولاً: استثمار قيمة توحيد الصف (التكامل البيئي العابر للحدود)

بما أن توحيد العالم العربي والإسلامي سياسياً يبدو معقداً في المنظور القريب بسبب القيود الدولية المفروضة منذ إسقاط الخلافة عام 1924م، وواد كل بادرة تسعى لالتفاف حقيقي وراء القضايا المصيرية للأمة في شتى المجالات — مستثنين هنا تلك الكيانات السياسية الرسمية الفاقدة للفاعلية كالجامعة العربية وغيرها — فإن البديل العملي المقترح هو "التكامل الشعبي والمعرفي والاقتصادي".

ولتحقيق ذلك، نقترح:

- بناء الفضاءات المشتركة: تجاوز الخلافات الأيديولوجية الفرعية والتركيز على "القضايا الجامعة" (كقضية القدس، والسيادة المعرفية، والتكامل الاقتصادي الشعبي).

- التكامل بين الثغور: ترسيخ مفهوم "الجسد الواحد" عابر الحدود؛ بحيث يوقن المسلم في ماليزيا، أو باكستان، أو تركيا، أو المغرب، أو مصر أنه جزء من معركة واحدة؛ فيدعم المستثمر بماله، والمبرمج بتقنيته، والمفكر بقلمه، والفنان بفنّه. ليتشكل بذلك جدار متماسك يتحدى التشرذم الجغرافي، امثالاً لقول المصطفى ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَنِعَاطِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى". (البخاري، صفحة 6011)

ثانياً: استثمار قيمة التسامح (التسامح الداخلي والحزم الخارجي)
تحتاج الأمة اليوم إلى إعادة ضبط بوصلة التسامح مستلهمة النموذج الأيوبي في مسارين متوازيين:

- التسامح الداخلي (بين أبناء الأمة): إشاعة ثقافة العفو وقبول المخالف في الرأي داخل الصف الإسلامي، وإغلاق ملفات "التحريش الإقليمي والمذهبي" التي تغذيها الأنظمة الوظيفية والعدو الخارجي لاستنزاف طاقات الشباب وعرقلة نهوضهم.

- الحزم الإستراتيجي (مع المعتدي والعدو الظاهر): إن لغة الدبلوماسية والصلح والمهادنة مع القوى الخارجية التي أبانت عن نواياها الاستئصالية تجاه قضايا الأمة لا بد أن تنطلق من موقع القوة والردع وحفظ الحقوق، لا من موقع الاستسلام والمذلة. فالغادرون وناكثو العهود ("أرناط العصر") لا يفل حديدتهم إلا الردع الصارم لحماية أمن الأمة ومقدساتها. ويعدّ تصدي جهات المقاومة وإسنادها لكسر العدوان الصهيويأمريكي على غزة خير دليل على أن العدو — مهما بلغت قوته المادية — ينكسر كبرياؤه أمام الحزم والتضحية، وليس نموذج التصدي في اليمن السعيد ببعيد عن هذه المعادلة.

على سبيل الختام: معادلة التحرير ورسالة الفن التاريخي

تثبت تجربة صلاح الدين الأيوبي أنّ "التحرير هو نتيجة حتمية لمعادلة هندسية دقيقة"؛

- بدأت بـ (إعادة تموضع وتحصين في الموصل).
 - وتوطّدت بـ (عدل وتأسيس تعليمي ومعرفي في الشام).
 - واكتملت بـ (توحيد جيو-سياسي محكم للشام ومصر).
- وعندما تكتمل أركان هذه المعادلة، تسقط القوى المحتلة تلقائياً في "حطين" جديدة.
- إنّ المتأمل في التاريخ يلحظ تماثلاً عجيباً ودورة شبيهة للزمن، لا سبيل للخروج من مآزقها المعاصرة إلا بسلوك الأسباب المادية والشرعية التي سلكها القادة الأوائل. ومن هنا، تبرز الدراما التاريخية الهادفة (مثل مسلسل صلاح الدين الأيوبي) كأداة قوية لبناء الوعي التاريخي الرسالي؛ فهي تربط الأمة بهويتها وقيم المقاومة، وتقدم نموذجاً ملهماً يسترشد به الجيل المعاصر للنهوض من السبات الذي فرضته عليه قوى البغي والاستعمار.

قائمة المراجع:

- ابن الأثير. (1385-1965). *الكامل في التاريخ*. (Vol. 11) بيروت لبنان: دار صادر.
- ابن الفرات المصري نقلاً عن الصلابي. (s.d.). *الطريق الواضح للمسلك*.
- أبو شامة المقدسي. (1418-1997). *كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية*. بيروت لبنان: مؤسسة الرسالة.
- البخاري. (s.d.). *الصحيح*. دار طوق النجاة.
- أيوب، محمد شعبان. (2020, 4 25). *عماد الدين زنكي.. كيف وحد العراق والشام وفتح الطريق لصلاح الدين الأيوبي؟*. Récupéré sur aljazeera.net: <https://www.aljazeera.net/history/2020/4/25/>
- دعاء أبو الضياء. (2020, 7 18). *محتوى العمل: مسلسل - صلاح الدين الأيوبي - 2001*. تم الاسترداد من سينما كوم: <https://elcinema.com/work/1285659/content>
- علي محمد الصلابي. (1429/2008, 3 3). *صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس*. بيروت لبنان: دار المعرفة. Récupéré sur www.alsalabi.com/article/3389
- كرم الدين حسين. (2024, 11 25). *نور الدين زنكي: السلطان العادل الذي سار على نهج الخلفاء*. Récupéré sur aljazeera.net: <https://www.aljazeera.net/blogs>
- تمت الاستعانة بمحرك بحث الذكاء الاصطناعي في التوصل إلى توثيق بعض المراجع، وفي ضبط وتنقيح النصوص. <https://gemini.google.com>